تاريخه

إن المتخصصين في مجال التفسير وعلوم القرآن يكاد إجماعهم ينعقد على ظهور التفسير العلمي وكثرة المؤلفات والمحاضرات فيه من بين سائر أنواع التفسير الأخرى مما جعل كثيرًا من ا لباحثين المعاصرين يعدونه من أبرز وسائل الدعوة إلى الإسلام في عصرنا الراهن.

ويلاحظ أنه مع التضخم الكبير في عدد المؤلفات التي يمارس أصحابها التفسير العلمي إلا أن هناك إحجامًا من كثير من العلماء من الخوض في هذا المجال.

وقد كان لبعض الباحثين المعاصرين فضل السبق في طرق هذا الباب منذ فترة طويلة نسبيًا لكن وتيرة التأليف النشطة في المجال التطبيقي تبقي الحاجة قائمة لمثل هذه الدراسات التأصيلية النظرية.

التعريف بالتفسير العلمي

(عرض ومآخذ وترجيح)

سنتناول في هذه المحاضرة أبرز التعريفات التي ذكرها العلماء في هذا المجال او النوع من التفسير مع بيان المآخذ عليها بشيء من الايجاز ثم بينات التعريف المختار وهذه التعاريف هي:

١ **تعريف الدكتور صلاح الخالدي:**

التفسير العلمي: هو تفسير الآيات تفسيرًا علميًا وفق قواعد العلم الحديث وبيان المضامين العلمية للآيات وفق مقررات وتحليلات العلم الحديث.

وعرفه أيضا بقوله: هو النظر في الآيات ذات المضامين العلمية من الزاوية العلمية، وتفسيرها تفسيرًا علميًا، وذلك بالاستعانة بالعلوم والمعارف والمكتشفات الحديثة في توسيع مدلولها وتقدير معناها.

٢ **تعريف أمين الخولي وموسى شاهين ومحمد حسين الذهبي:**

التفسير العلمي: هو التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها.

٣ **تعريف الدكتور محمد لطفي الصباغ:**

التفسير العلمي: هو تحكيم مصطلحات العلوم في فهم الآية، والربط بين الآيات الكريمة ومكتشفات العلوم التجريبية والفلكية والفلسفية.

وهو أشبه بالتعريف السابق مع بعض التصرف اليسير في العبارات.

٤ **تعريف الدكتور عبد الله الأهدل:**

التفسير العلمي: هو تفسير الآيات الكونية الواردة في القرآن على ضوء معطيات العلم الحديث.

٥ **تعريف الدكتور عبد المجيد المحتسب:**

التفسير العلمي: هو التفسير الذي يتوخى أصحابه إخضاع عبارات القرآن للنظريات والاصطلاحات العلمية وبذل أقصى الجهد في استخراج مختلف مسائل العلوم والآراء الفلسفية منها.

٦ **تعريف الدكتور فهد الرومي:**

التفسير العلمي: هو اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي، على وجه يظهر به إعجاز للقرآن.

٧ **تعريف الدكتور أحمد أبو حجر:**

التفسير العلمي: هو التفسير الذي يجاول فيه المفسر فهم عبارات القرآن، في ضوء ما أثبته العلم، والكشف عن سرٍّ من أسرار إعجازه.

٨ **تعريف الشيخ عبد المجيد الزنداني:**

التفسير العلمي: هو الكشف عن معاني الآية أو الحديث، في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية.

٩ **تعريف الدكتور زغلول النجار:**

التفسير العلمي: هو توظيف كل المعارف المتاحة لحسن فهم دلالة الآية القرآنية.

المآخذ على التعاريف السابقة

هناك عدة ملاحظات على ما سبق من تعاريف للتفسير العلمي يمكننا ايجازها بما يأتي:

أولاً: يُلاحظ أنّ إطلاق وصف [العلمي] على هذا اللون من التفسير دون سواه فيه مجافاة للحقيقة من جهة، وغضٌ من قيمة العلوم الأخرى من جهة ثانية، ويُفهم منه أن ألوان التفسير الأخرى ليست علمية،

كالتفسير الفقهي والعقدي واللغوي، ولذا فإن الأولى تقييده بالتجريبي أو الكوني، فيقال: التفسير العلمي التجريبي، أو التفسير العلمي الكوني.

مع ملاحظة صعوبة التقييد نظرًا لانتشار هذا المصطلح بشكل كبير، مما يجعل بعض الباحثين يستخدمه مع قناعته بعدم دقته، تبعًا للمقولة ا لمشهورة: خطأ مشهور خيرٌ من صواب مهجور.

ثانيًا: في تعريف الخولي والصباغ والذهبي ولاشين والمحتسب، جاء النص على تحكيم الاصطلاحات العلمية على آيات القرآن وإخضاع عبارات القرآن لها، وفي هذا عكس للقضية، فالنص القرآني هو الحاكم على التفسير لا العكس، كما أن الاصطلاحات العلمية تشمل أربعة أمور هي: الفرضيات، والنظريات، والمكتشفات، والحقائق العلمية؛ ولذا فلابد من تحديد المراد بالمصطلحات العلمية هنا.

ويلاحظ أن القضايا الفلسفية لا علاقة لها بالعلم التجريبي والكوني، ولا تدخل ضمن مسمى التفسير العلمي عند أصحابه.

وقد مال هؤلاء المعرِّفون الخمسة إلى الإيحاء للقارئ بموقفهم الرافض للتفسير العلمي، وهو ما فطن إليه أحد الباحثين حين قال: إن كل من يُعرِّف التفسير العلمي بهذا الشكل إنما يُعرّفه من وجهة نظره المانعة لهذا الاتجاه في التفسير.

ثالثًا: في تعريفَي الدكتور صلاح الخالدي يلاحظ تكرار كلمتي التفسير والعلمي في التعريف أكثر من مرّة، مع أن المطلوب هو إيضاح معنى هاتين الكلمتين، فقد تكررت كلمة العلم أربع مرّات في التعريف الأول، وأربع مرّات كذلك في التعريف الثاني، دون إيضاح أي أنواع العلوم يُقصد إليه في هذا اللون من التفسير.

رابعًا: في تعريف الدكتور فهد الرومي يُلاحظ أن مجرد كشف الصلة بين الآيات القرآنية وما يكتشفه العلم التجريبي ليس تفسيرًا للآية بالمعنى الاصطلاحي الدقيق للتفسير، الذي هو بيان المعنى المراد منها، وليس مجرد وصف الصلة بينها وبين ما يكتشف في علم ما.

وقد ركز التعريف على المفسر وليس التفسير، فتحدث عن (اجتهاد المفسر في كشف الصلة...) وهو عمل يقوم به المفسر، والمطلوب بيان تعريف التفسير العلمي، كما أن النص على أن يكون هذا الكشف على وجه واحد مخصوص هو (ما يظهر به إعجاز للقرآن يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان) يحصر التفسير العلمي في دائرة الإعجاز العلمي دون سواها، ويخرج كثيرًا من الآيات القرآنية التي يمكن استخدام

بعض الحقائق العلمية في إيضاح معناها دون أن يكون في ذلك إعجازٌ بالمعنى الدقيق لمصطلح الإعجاز والا لاطلقنا عليه اسم التفسير الاعجازي الكوني بدل التفسير العلمي.

خامسًا: في تعريف الشيخ الزنداني والدكتور الأهدل والدكتور أبو حجر: يُلاحظ أن عبارة (في ضوء ما ترجّحت صحته) عند الأول، وعبارة (على ضوء معطيات العلم الحديث) عند الثاني. وعبارة (في ضوء ما أثبته العلم الحديث) عند الثالث، هي عبارات عامة غير دقيقة، ولا يناسب استخدامها في التعريفات التي تتصف عادة بالدقة والتحديد، لتكون جامعة مانعة، فهل يراد بها الاستئناس بمعطيات العلم الحديث أم الاحتجاج بها؟ وهل يعد التفسير علميًا إذا أشار من بعيد إلى بعض معطيات العلم الحديث دون ربط ذلك بمعنى الآية؟ كما أن جعل تفسير الآية القرآنية على وفق المعطيات العلمية غير مسلَّم به؛ فإن الآية لا يستمد تفسيرها من مجرد معطيات العلم الحديث. فهل ظل معنى الآية غامضًا ثم كشف عنه واتضح معناه بما ظهر من الكشوفات العلمية الحديثة؟

سادسًا: في تعريف الدكتور زغلول النجار توسع كبير في العبارة، أخرج التعريف عن كونه مانعًا، فهو يستخدم كلمة "توظيف" وهي كلمة عامة تشمل التفسير والإيضاح، وتشمل الاستفادة من المعطيات دون وصول إلى درجة الكشف والبيان.

كما أن هذا التوظيف لا يقتصر على الحقائق ا لعلمية عنده، بل إنه يرى أن المفسر إذا لم يجد الحقائق والقوانين فإنه لا حرج عليه من توظيف النظريات والفروض العلمية في تفسير الآية؛ وهو توسع غير سائغ ولا مبرر.

التعريف المختار

بعد هذا العرض لأبرز التعاريف للتفسير العلمي والمآخذ عليها يمكنا القول ان التعريف المختار والانسب لهذا العلم هو الآتي:

التفسير العلمي هو: استخدام العلم التجريبي في زيادة إيضاح معاني الآيات القرآنية وتوسيع مدلولاتها.

او هو: استخدام حقائق العلم التجريبي في زيادة إيضاح معاني الآيات القرآنية وتوسيع مدلولاتها.

وهذا التعريف نص على كون العلم التجريبي خادمًا للنص القرآني، وليس حاكمًا عليه، كما جاء في بعض التعاريف السابقة؛ كما أن التعريف قصر أثر العلم التجريبي الحديث في زيادة إيضاح المعاني وتوسيع المدلولات، لأن معاني الآيات القرآنية كانت واضحة للصحابة والسلف الصالح، وإنما أسهم العلم التجريبي الحديث في زيادة الإيضاح وتوسيع الدلالة.

وإن أردنا أن نضيّق الدائرة ونعرِّف التفسير العلمي بما يُفترض أن يكون عليه وليس بمجرد واقعه السائد، فإننا نضيف كلمة (حقائق) قبل كلمة (العلم التجريبي) لنحصر التفسير العلمي في دائرة الحقائق العلمية لا النظريات والفرضيات التي يجيز بعض المعاصرين توظيفها في فهم دلالة الآية القرآنية.

العلاقة بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي

من أكثر الأسباب التي أدت إلى تباين المواقف حول التفسير العلمي قبولاً أو ردًا الخلط بينه وبين الإعجاز العلمي، حتى في أوساط بعض المتخصصين في هذا المجال، بل إن منهم من يراهما شيئًا واحدًا.

فهل كل آية تتضمن إشارة علمية في قضية كونية أو طبية أو نحوها تحمل إعجازًا علميًا بالمعنى الدقيق للإعجاز؟

وفي حين قصر بعض الباحثين الإعجاز القرآني على وجه واحد هو الإعجاز البياني اللغوي دون سواه بدعوى أن معارف الناس وقت نزول القرآن لم تدرك ما تم اكتشافه فيما بعد من العلوم الكونية والطبيعية، فكيف يسوغ حينئذٍ أن يتحدوا بما لا يملكون آلته والوسيلة إلى بلوغه إلا أن الصواب أن الله تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثل القرآن في جميع جوانب الإعجاز فيه: الإعجاز البياني، والتاريخي، والإخباري، والتشريعي، والتربوي، والعلمي التجريبي؛ وفي كل عصر يبرز جانب من جوانب الإعجاز القرآني تبعًا لاهتمامات الناس ومعارفهم.

ولو سلمنا جدلاً بقصر الإعجاز على الجانب البياني اللغوي، فكم هي نسبة الذين يتذوقون اللغة ويدركون أسرار البيان فيها اليوم بالنسبة للناطقين بالعربية؟ وكم هي نسبة العرب إلى غير العرب من المسلمين اليوم؟ بل وكم هي نسبتهم بالنسبة إلى أهل الأرض جميعًا الذين تحداهم الله تبارك وتعالى بالقرآن؟.

وعلى الضد من هؤلاء فإن من الباحثين من يؤكد على أن الإعجاز العلمي "قضية مسلمة لا جدال فيها أجمع عليها المسلمون"، ويذهب بعضهم إلى تعريف الإعجاز العلمي بما يجعله مماثلاً للتفسير العلمي كما حصل من ا لدكتور غانم قدوري الحمد حين قال أن "الإعجاز العلمي يتناول دراسة الآيات التي وردت فيها إشارة إلى قضايا علمية تتعلق بالفلك أو الطب، أو علمي النبات والحيوان ونحوهما".

بل إن بعض الباحثين يتحفظ على مصطلح الإعجاز العلمي، ويرى استبداله منعًا للخلط واللبس بمصطلح: دلائل صدق القرآن.

ومن هنا فإن بيان العلاقة بين مصطلحي التفسير والإعجاز العلمي يزيل خطأً منهجيًا وقع فيه بعض المتخصصين، وكانوا فيه على طرفين، والصواب هو التوسط بينهما، فليس التفسير العلمي مرادفًا للإعجاز العلمي وإلا لاعتبرا شيئًا واحدًا، كما أنهما ليسا منفصلين متباينين، بل إن بينهما عمومًا ا وخصوصًا ودائرة أحدهما أوسع من الآخر.

فكل إعجاز علمي فهو يُعرف من خلال التفسير العلمي، وليس كل تفسير علمي قابلاً لأن يكون إعجازًا علميًا تقوم به الحجة على غير المسلمين.

إن تعريف الإعجاز العلمي ب "إظهار صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بما حمله الوحي إليه من علم إلهي ثبت تحققه ويعجز البشر عن نسبته إلى محمد صلى الله عليه وسلم أو إلى أي مصدر بشري في عصره" يدل على وجود فرق بينه وبين التفسير العلمي ويظهر هذا الفرق من خلال على أمرين:

أحدهما: أن استخدام مكتشفات العلم التجريبي في بيان معاني الآيات القرآنية هو التفسير العلمي، وأن استخدام هذا التفسير العلمي في إثبات صدق النبوة وكون القرآن كلام الله لذكره ما لا يمكن للبشر أن يعرفوه في ذلك الوقت هو الإعجاز العلمي. فكأن التفسير العلمي وسيلة لغاية: هي الإعجاز العلمي.

والثاني: أن القرآن حجة الله على الإنس والجن أجمعين، وجزء كبير من الثقلين من غير المسلمين، وغير المسلم لا يقتنع بصدق النبوة بمجرد ورود بعض الإشارات العلمية في الآيات القرآنية التي يجتهد المفسرون في استخدامها لإيضاح المعنى وهو ما يُسمّى التفسير العلمي. إنما يُحتج عليه بما يثبت قطعًا استحالة معرفة البشر له وقت نزول القرآن، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يكشف الله للناس بعد ذلك من حقائق العلم التجريبي ما يكون مذكورًا في القرآن فهذا هو الإعجاز العلمي.